المحاضرة 6: مفهوم النثر في التراث العربي

تمهيد:

لم يكن اهتمام الأدباء والنقاد بالشعر بأقل من اهتمامهم بالنثر والنظر في مفهومه ومقوماته، وإن لم يصلنا منه إلا القليل، ويرى ابن رشيق أن ما ضاع من الموروث النثري أكثر كثيرا ممن ضاع من الموروث الشعري، كما كان اهتمام العرب بالنص القرآني بالدراسة والشرح واستنباط الأحكام الفقهية وليس على أساس أنه نص نثري عادي، قال أبو عمرو ابن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم نشأتهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم[1] . فيا ترى ما مفهوم النثر؟ وأيهما أسبق الشعر أم النثر؟ وما الفرق بينهما؟ وكيف نظر النقاد إلى النثر؟

مفهوم النثر:

لغـة: النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقًا مثل نثر الجوز واللوز والسكر، ونثر الحَبَّ إذا بذر[2]، فالنثر هو التبعثر الذي لا يقيد بقيد وهي صفة في النثر الأدبي الذي يختلف على الشعر الخاضع للوزن والقافية. وفي القاموس المحيط : نثر الشيء نَثَرهُ ويَنثُره نثراً ونثاراً: رماه متفرّقاً كنثره فانتثرَ وتنثّر وتناثر والنّثارة بالضّم والنّثر بالتّحريك ما تناثر منه، أو الأُولى تخصُّ ما ينتثر من المائدة فيؤكل للثّواب[3].

اصطلاحًا: النظم هو ما يميز دائما النثر عن الشعر، والمنظوم خلاف المنثور، والنثر أوسع تعبيرا من الشعر.والنقاد القدامى لم يتناولوا النثر بالتعريف إلا من باب المخالفة والنقيض

---

[1] – البيان والتبيين 241/1.

[2] – لسان العرب ص4339 (نثر) ، والقاموس المحيط ص 432 (نثر).

[3] – الفيروز آبادي مادة (نثر): ج2، ص138.

للشعر، فقد جاء في البيان والتبيين قول سهل بن هارون: "واللسان البليغ والشعر الجيد لا يكدان يجتمعان في واحد وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم[4].

ويعرفه قدامة بن جعفر في معرض حديثه وتعريفه للشعر: "أول ما يحتاج إليه في شرح هذ الأمر معرفة حد الشعر الجائز عما ليس بشعر وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه: "إنه قول موزون مقفي يدل على معنى"[5] فمن باب النقيض أن النثر ما لم يقيد بوزن وقافية.

ويرى الجاحظ ان صعوبة اجتماع كل من الشعر والنثر في شخص واحد إلى طبيعة كل إنسان فبعض الناس "يكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر"[6].

والفارابي يقيم حدًا فاصلا بين الخطابين الشعري والنثري بطريقة واضحة لا لبس فيها إذا جعل المحاكاة أبرز ما في الشعر وجعل الوزن أدني ما في الشعر ولذكي همل القافية، كما يفرق بين الشعر والنثر (الخطابة) ويجعل أساس هذا التفريق مبدأ الصدق والكذب فالشعر يقوم على التخييل (الكذب) والخطابة تقوم على الصدق[7].

كما يذكر **أبو حيان التوحيدي** صاحب كتاب"الإمتاع والمؤانسة" قولا وهو أن النثر أصل الكلام والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع والفرع أنقص من الأصل لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات. فأما زائنات النثر فهي ظاهرة لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، ومن شرفه أيضا أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منثورة مبسوطة. فخير الكلام ما قامت صورته على نظم كأنه

---

[4] – البيان والتبيين 243/1.

[5] – نقد الشعر ص64.

[6] – البيان والتبيين 208/1.

[7] – مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، مصطفى قط ص46.

نثر ونثر كأنه نظم، يطمع مشهوده بالسمع ويتمتع مقصوده على الطبع.فالتوحيدي يذكر الفرق بين الخطاب النثري والخطاب الشعري "والنظم ادل على الطبيعة لأن النظم حيز التركيب والنثر أدل على العقل لأن النثر من حيز البساطة"[8].

نشأة النثر العربي القديم :

ينتمي النثر العربي القديم إلى المرويات الشفاهية ،ولم يقم التدوين إلا بتثبيت آخر صـورة بلغتها تلك المرويات الشفاهية ،ومعروف أن هذا النثر قام أساسا على مجموعة ضخمة من الأخبار والحكايات المختلفة في الأغراض والمواضيع ،ومع الزمن بدأ ينتظم في أنواع لها خصائصها الأسلوبية والتركيبية ،وأبرز تلك الأنـواع التي ترسخت في الثقافة العربيــة القديمة :

- **الحكايات الخرافية** ،التي استندت إلى الأخبار القديمة التي تتصل بمرحلة متقدمة .
- **السيّر**،التي تكونت في أول أمرها بتوجيه من سيرة الرسول –صلى الله عليه وسلم –ثم تبلورت في القرنين الهجريين الأول والثاني .
- **المقامات**، والتي استلهمت أخبار الشطار والظرفاء .

ومن النقاد من يرى أن النثر أسبق ظهورا من الشعر مع وجود فارق بين اللغة النقدية المتداولة والنثر الأدبي (الفني)، ولكن أقدم النصوص التي وصلتنا شعرية لا نثرية، فالشعر تحفظه الذاكرة ويعتمد على الخيال، وهو أسهل حفظا من النثر، ولذلك وعت الذاكرة النصوص الشعرية، بينما لم تع النصوص النثرية كالخطب وغيرها، ولذلك نطالع دائما في كتب الأدب أن الشعر أسبق ظهورا من النثر الفني الذي يعتمد على العقل. بقول ابن رشيق: "وكان الكلام كله منثورا، فاجتابت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها،

[8] – نفسه ص47.

وذكر أيامها الصالحة...فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره"[9].

المفاضلة بين الخطاب النثري والخطاب الشعري: خاض كثير من النقاد في مسألة المفاضلة بين الشعر والنثر:

1-النقاد الذين يفضلون الشعر: نذكر منهم:

- **أبو علي محمد بن الحسن بن المطفر الحاتمي :**

صاحب كتاب "حلية المحاضرة في صناعة الشعر" المتوفى سنة 388هـ من النقاد الذين يفضلون المنظوم على المنثور يقول: "ووجدت البلاغة منقسمة قسمين: منظومًا ومنثورًا وأولى هذين القسمين بالمزية، والقدم للمتقدم، المنظوم فإنّه أبدع مطالع وأنصح مقاطع، وأطول عنانًا وأنصح لسانًا، وأنور أنجمًا وأنفذ أسهمًا وأسير لفظًا ومعنًى...والمنظوم أرشق في السماع وأعلق بالطباع... والمنظوم أهز لعطف الكريم وأجمع لشتات محاسنه..."[10]، غير أنّنا نجده يستدرك ليقول إنّ المنثور أفضل إذا لم تتوفر في المنظوم تلك الأوصاف فيقول: "فإذا كان غير معتدل النظم، ولا متناسب القسمة ولا مقبول العبارة وكانت معانيه بعيدة وألفاظه شريدة... فسليم المنثور – وإن عطل من حلي البيان وتعرى من حلل الإحسان– أعذب شربًا وأكرم عرفًا[11].

- **عبد الكريم النهشلي صاحب كتاب الممتع في صنعة الشعر:**

---

[9] – ابن رشيق، ،ج1،ص20.

[10] – حلية المحاضرة في صناعة الشعر للحاتمي ص 124/1.

[11] –السابق 126/1

يقول: " ثم خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب، وتجذل به النفوس، وتصغي إليه الأسماع وتشحذ به النفوس، وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار"[12].

2-النقاد الذين يفضلون النثر:

- **أبو منصور الثعالبي (429هـ) صاحب كتاب "نثر النظم وحل العقد"**: يفضل النثر على الشعر يقول في خطبه كتابه: "وأقبل على النثر الذي هو أشرف وفي طريق الملوك والأكابر اذهب، وأصحابه أفضل ومجالسهم أرفع ولم تزل ولا تزال طبقات الكتاب مرتفعة عن طبقات الشعراء، فإن الكُتَّاب وهم السنة الملوك"[13].
- **أبو القاسم الكلاعي الاشبيلي صاحب كتاب "أحكام صنعة الكلام"**: الأصل في الكتاب انه في نقد النثر بين فيه أسسه صناعة النثر فكان يفضل النثر على المنظوم ففي فصل في التوجيح بين المنظوم والمنثور يقول: "إنّ الترجيح من المنثور والمنظوم يم قد خاض فيه الخائضون وميدان قد ركض فيه الراكضون، ورأيي أن القريض قد تزين من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية، صار فيها أبدع مطالع وأصنع مقاطع وأبهر مياسم، وأنور مباسم، وأبرد أصلا، وأشرد مثلا، وأهز لعطف الكريم وأفل لغرب اللئيم، لكن النثر أسلم جانبًا وأكرم حاملا وطالبًا... لأنَّ الشعر داعٍ لسوء الأدب وفساد المنقلب"[14].

<u>الأنواع النثرية</u>: عرفت عدة أشكال نثرية قديمًا منها:

- **الخطابة:** ظهرت الخطابة في العصر الجاهلي وكانت لها أغراض تتمثل في خدمة القبيلة اجتماعيا فكانت تدور حول المفاخرات والحروب، أما بعد ظهور الإسلام فقد ارتبطت الخطابة بالدين والسياسة والوعظ وهذا يدل على ارتباطها بالواقع الذي تعيش فيه، وهي فن نثري قديم يهدف إلى التأثير في سلوك السامعين وفي عقولهم.

---

[12] – الممتع في صنعة الشعر ص11

[13] – نثر النظم وحل العقد ص6

[14] – احكام صنعة الكلام للكلاعي ص44

- **الرسالة:** تعد جنسا نثريا كتابيا ظهرت نتيجة التطور الحضاري ، وتكون الرسالة في المكاتبات والاعتذارات والمعاتبات ، والبلاغة في الرسالة تشبه البلاغة في الخطابة ، والفارق بينهما يكمن هو أن الخطبة مسموعة ، والرسالة مقروءة ، فإذا اتفقت الرسالة والخطابة فنيا فكذلك تتفقان في الأغراض من حيث خدمة الدين والدولة.
- **المناظرة:** فن نثري يقوم على الحجة والبرهان موضوعاتها هي التي يكثر حولها الخلاف.
- **الأمثال والحكم:** أقوال سائرة موجزة تعتمد على التشبيه.
- **التوقيعة:** رسالة موجزة مختصرة استعملت بين الأمراء والخلفاء.
- **المقامة:** فن نثري عرف في العصر العباسي خاصة يعتمد البديع والتصوير قصة قصيرة تقال في المجالس عادة مثل: مقامات الحريري ، و مقامات بديع الزمان الهمذاني.
- **القصة:** فن نثري عرف منذ الجاهلية اعتمدت المشافهة استعملها العرب في سمرهم لذكر بطولاتهم ووصف حروبهم وأيامهم.